

نادي التجار

الْتَّرْبِيَةُ الْحَلْقِيَّةُ فِي الْفَلَزِ الْبَرِّيِّ

الحاضرة التي ألقاها الأستاذ حسن كامل المطاوي بدار نادي التجار
مساء السبت ١٢ رمضان سنة ١٣٨٩ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرِّبُّ الْخَلِيقُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الحمد لله المستغنى بنفسه عن خلقه والصلوة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله رب رحمة للعالمين ، وجعله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، ورضى الله تبارك وتعالى عن آل الكرام البررة وأصحابه الأتقياء الأوفياء الذين تخلفوا بخلقه صلى الله عليه وسلم عن معرفة بقدره وتقدير لفضله ، مستثيرين فى ذلك بكتاب الله العزيز الذى شهد له بالخلق العظيم فى قوله الكريم : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، ورحم الله أسلافنا الصالحين الذى تشبهوا بهم فى ذلك المضمار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وشكر الله لشيخنا الآجلاء حسن صنيعهم فى إرشادنا وتوجيهنا إلى طريق القوم بالمقال والفعال والحال ابتغاء وجه الله تعالى وهم : سادتنا الأقربون سيدى صاحب طريقتنا الخليلية الغوث الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه الزكى بالزقازيق ، وخليفته سيدى القطب الشيخ عبد السلام الحلوانى ساكن ضريحه المنير بالقاهرة ، سيدى القطب الشيخ على عقل ساكن ضريحه المبارك بالإسكندرية ، أما بعد .

الأخلاق النبوية :

فقد سئلت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها ، كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وهى الفقيه الحجة ، الذكية العبرية

اللألمعية، التي لم تنجب أمة مثلها في العلم : كان خلقة القرآن ، أى أنه تأدب بأدب القرآن والترزمه ولم يتجاوز حدوده ، وما أروعه من قول سديد ، فقد أجملت خلقه العظيم صلى الله عليه وسلم في كلمة واحدة تضيق في تفصيلها الكلمات ، وتحتاج في استيعابها إلى المجلدات .

وسأحاول في محاضرتى هذه أن أكشف لكم ، ما وسعنى جهدي الضعيف ، بعض الخطوط في جوانب تلك الجامعة ، ولعلى أعود إلى غيرها في محاضرات لاحقة إن شاء الله ، فأقول ومنه سبحانه العون والتوفيق .

الإسلام والأخلاق :

إن الدين خلق ، فمن زاد عليك في خلقه فقد زاد عليك في دينه ، وقد عرف السادة الصوفية التصوف ، فقال الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني ، والأخلاق الكريمة لها طرفان ، طرف في جنب الله تعالى ، وطرف في جنب الناس ، والطرف الأول هو الأساس الذي يقوم عليه الطرف الثاني ، لأن حسن معاملة الله يؤدى حتما إلى حسن معاملة الناس لرب الناس سبحانه .

وأساس الإيمان هو الشهادتان الثابتتان : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وشهادتان الشهادتان مما دعمتا الإسلام الذي ارتضاه الله ديناً

لعباده ، فقد قال تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام)^(١) كما قال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)^(٢) وأول ما نزل من القرآن الكريم هو قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ ربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم)^(٣) .

وهو توجيه من الله تعالى يعلمنا به أن نرکن إليه في علمنا وعملنا ، لأنه سبحانه خالقنا وعلمنا مالم نكن نعلم ، ولو لا تعليمه ما كان علمنا ، ولو لا علمنا ما كان عملنا .
وكما علمنا سبحانه أن حياتنا منه ، علمنا كذلك أن مماتنا منه ، فهو خالق الحياة وخلق الموت ، وكشف لنا عن حكمته في الحياة والموت فقال تعالى : (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قادر * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أياكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور)^(٤) .

حكمة وجودنا :

وبين لنا سبحانه ما هو العمل الذي يريده منا في حياتنا فقال تعالى :

^(١) آية ١٩ من سورة آل عمران .

^(٢) آية ٨٥ من سورة آل عمران

^(٣) الآيات من ١-٥ من سورة العلق .

^(٤) الآيات ١ و ٢ من سورة الملك .

وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسَانَ إِلَيْهِمْ دُنْعَوْنَ * مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يَطْعَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّيْنِ (١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مَعْنَاهَا إِلَّا لَيَعْرِفُونَ .

الروح :

وَبِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ دَلَّنَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سِرِّ عَظِيمٍ رَكْبَهُ فِي أَجْسَادِنَا وَلَا نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا إِنَّمَا نَشَهِدُ آثَارَهُ فِينَا ، فَفِي وُجُودِهِ نَتَحْرُكُ وَنَدِيرُ ، وَبِخُروجِهِ مِنْ أَجْسَادِنَا فِي النَّوْمِ أَوِ الْمَوْتِ تَهْمَدُ أَعْصَاءُنَا فَلَا حَرْكَةٌ وَلَا تَفْكِيرٌ وَلَا تَدْبِيرٌ ، وَذَلِكَ السِّرُّ هُوَ الرُّوحُ ، وَالرُّوحُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَجَعَلَ سَبْحَانَهُ نَوْمَنَا مَذْكُورًا بِمَوْتَنَا عَنْدَ اِنْتِهَاءِ الْأَجْلِ ، وَجَعَلَ يَقِظَنَا بَعْدَ النَّوْمِ مَذْكُورًا بِبَعْثَنَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، مَظَهِرًا بِذَلِكَ لِلْعَيْنِ قَدْرَتِهِ عَلَيْنَا وَسَلْطَانَهُ فِينَا فَقَالَ تَعَالَى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمِتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجْلٍ مُسَمِّىٍّ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٢) .

وَمِنْ ذَلِكَ آمَنَا بِالرُّوحِ غَيْبًاً دُونَ أَنْ نَرَاهَا ، وَهَذَا مَا يُسْهِلُ لَنَا الْاسْتِمْسَاكُ بِمَا اعْتَقَدْنَا مِنْ وُجُودِ اللَّهِ بِالْغَيْبِ وَدُونَ أَنْ نَرَاهُ بِالْأَعْيُنِ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ بِالْغَيْبِ يَتَبَعَهُ الْإِيمَانُ بِسَائرِ الْغَيْبِيَّاتِ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالثَّوَابِ

(١) الآيات من ٥٦-٥٨ من سورة الذاريات .

(٢) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

والعقاب ، ولذلك وجهنا سبحانه إلى التفكير في انفسنا وجعل ذلك التفكير مدخلاً للإيمان فقال تعالى : (وفي أنفسكم أفلًا تبصرون) .

الطيبات والخائث :

وكما خلقنا الله سبحانه خلق لنا أسباب الحياة وأحل لنا الطيبات وهي لا تعد ولا تحصى ، وحرم علينا الخائث وهي قليلة جداً إذا قيس بالطيبات فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واسكروا الله إن كنتم إيمانكم * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) ^(٤) وذلك من اختباراته التي يميز بها المطيع من المعاصي والمحسن من السوء .

كفالات الرزق :

ولئلا يشغلنا الرزق والسعى فيه عن معرفة الرزق ضمن لنا سبحانه أرزاقنا كما ضمنها لسائر دواب الأرض فقال تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) ^(٢) ومن ذلك تعلم أن الرزق المقدر لأحدنا لا يعطى لسواء ، فلا محل إذن لأن يحصد بعضاً ما آتاه الله من الرزق بأنواعه من المال والبنين والجاء والعلم وغير ذلك .

إرثاً لرسول :

^(٤) الآياتان ١٧٢ و ١٧٣ من سورة البقرة .

^(٢) آية ٦ من سورة هود

ولتيسير الأمر على العباد في معرفة ربهم والإيمان وبسائر الإيمانيات الغيبية أرسل لهم سبحانه الرسل الكرام فدلولهم عليه تعالى وبينوا لهم سبل الوصول لمعرفته بالقول والفعل ، والحال ثلا يكون على الله حجه بعد الرسل ، وختم الرسالات السماوية بالرسالة المحمدية ، فكانت أشمل الرسالات وأوسعها لأنها جاءت للناس كافة بعد أن كانت الرسالات قبله إقليمية أو قومية محدودة ، ويقول سبحانه وتعالى في عمومية الرسالة المحمدية (قل يا أيها الناس إنّي رسول الله إِلَيْكُمْ جمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيَمْتَدِ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)^(١) فلم يبق لمتختلف عذر في تخلفه عن ربه ، فقد عرفه الله أن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هو سبيل الاهتداء ، وقد أيدا الله الرسالة المحمدية بالقرآن الكريم وهو أعظم المعجزات وأبقاها على الزمان ، وقد تحدى به الإنس والجن بالعجز دائم على رسالته صلى الله عليه وسلم لهم ولمن جاءوا من بعدهم إلى يوم القيمة .

القرآن الكريم واثره :

(١) آية ١٥٨ من سورة الأعراف .

ويقدر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل ربه عليه في معجزة القرآن الكريم فيقول صلوات الله عليه وعلى آله (ما من الأنبياء نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتته وحيًا أواه الله إلى فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيمة) ، وقد بلغنا صلى الله عليه وسلم القرآن كما أنزل إليه ، وفضل لنا في سنته ما أجمل القرآن من الأحكام . وبفضل القرآن الكريم كانت أمتنا أكبر الأمم وأعظمها شرفاً ، وقد بين سبحانه أن الأمة المحمدية تميزت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله) ^(١) .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إنما كان في هذه الأمة لتقدير الأخلق على منهج الدين الحنيف حتى يتشبه المؤمن في أخلاقه برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغ في خلقه الغاية التي أحبها الله منه وأنتي عليه بها في قوله الكريم (إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ) ^(٢) ، وقد قيض الله للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أئمة في كل جيل حلامهم بمحارم الأخلق النبوية ليكونوا قدوة لغيرهم .

أخلاق نبوية :

وكان من خلقه صلى الله عليه وسلم الحياء ، والسخاء ، والتوكل ، والرضا ، والذكر ، والشكر ، والحلم ، والصبر ، والعفو ، والصفح ، والرأفة ، والرحمة والمداراة ،

^(١) آية ١١٠ من سورة آل عمران .

^(٢) آية ٤ من سورة القلم .

والنصحية ، والسکينة ، والوقار ، والتواضع ، والافتقار ، والجود والسماحة ، والقوة ، والشجاعة ، والرفق ، والإخلاص ، والصدق ، والزهد ، والقناعة ، والخشوع ، والخشية ، والتعظيم ، والهيبة ، والدعاء ، والبكاء ، والخوف ، والرجاء ، والتهجد ، والعبادة ، والجهاد ، والمجاهدة ، وكل ذلك مما حض عليه القرآن الكريم ودعا إليه.

وصاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى ، وقد من الله به علينا لترسم خطاه إذ يقول سبحانه : (لَقَدْ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيَزْكِيهِمْ بِمَا يَعْلَمُ مِنْهُمْ وَيَعْلَمُ مِنْ أَنفُسِهِمْ)^(١) .

وقد تخلق الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم بالأخلاق المثلى التي وجهه إليها الله تعالى في القرآن المجيد ، فوجب علينا أن نقرأ القرآن ونتدبره ونعمل به كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ومن ولامهم بإحسان ، فاهادوا بنوره إلى الصراط المستقيم مصداقاً لقوله تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَّكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ أَتَى اللَّهَ مَوْلَانَهُ سَبِيلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ)^(٢) . ولقوله سبحانه (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

^(١) آية ٢٦٤ من سورة آل عمران .

^(٢) آية ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالأخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً ^(١) ، وقد بين سبحانه كيفية تدبره والتأثر به فقال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ومن يضل الله فما له من هاد) ^(٢) .

وقد بين القرآن الكريم للناس بجلاء ما سيكون يوم القيمة فقال تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن ي عمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن ي عمل مثقال ذرة شرًا يره) ^(٣) .

كما بين القرآن أن الاقتداء بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو سبيل محبته تعالى ومغفرته للمؤمن فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويعفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) ^(٤) .

وقد أحب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم رب كل كلياته وجزئياته وآثره على كل شيء فلم يركن إلى دنيا فانية ، بل بذل أقصى جهده لآخرة لعلمه أننا خلقنا لآخرة لا للأولى ، وأن دنيانا هذه ممر وليس بمقر ، وعلمنا بمسلكه كيف نأخذ من ممرنا لمقرنا ، ويقول العارفون : إذا كان سيد العالمين وأمير الأنبياء والمرسلين مع عصمه من الذنوب أمره الله بالركوع والسجود ، فكيف يطمع في الوصول من

^(١) الآياتان ٩ ، ١٠ من سورة الإسراء .

^(٢) الآية ٢٣ من سورة الزمر .

^(٣) الآيات من ٦ – ٨ من سورة الزينة .

^(٤) آية ٣١ من سورة آل عمران .

ليس له محصول ، وهم يشيرون بقولهم هذا إلى قوله تعالى : (أقم الصلاة لدلك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً * ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً مموداً)^(١) .

القواطع :

ويقول العارفون إن أعداء المؤمن التي تقطعه عن ربها أربعة : **النفس والشيطان والدنيا والناس ، والقرآن الكريم يبصرينا وخذلنا من تلك القواطع الأربع** .
 فقال تعالى في النفس : (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) وقال في الشيطان : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوه حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)^(٢) .
 وقال في الدنيا : (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم)^(٣)

^(١) الآياتان ٨٧ ، ٧٩ من الإسراء .

^(٢) آية ٦ من سورة فاطر .

^(٣) الآية ٦٧ من سورة الأنفال .

وقال فى الناس قوله الفصل : (يا أيها الناس اتقوا ربكم واحشوا يوما لا يجزى والد عن والده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور)^(١) .

مال المؤمنين والكافرين :

ويحكى القرآن الكريم ما يكون من مآل المؤمنين والكافرين يوم القيمة فيقول سبحانه : (فإذا نفح في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكتبت بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإننا ظالمون * قال أحسنوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهם سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)^(٢) .

فاتحة الكتاب :

وليربينا القرآن على دوام ذكر الله تعالى واليوم الآخر ألمنا أن نقرأ

^(١) آية ٣٣ من سورة لقمان .

^(٢) الآيات من ١١١ - ١٠١ من سورة " المؤمنون "

فاتحة الكتاب في كل ركعة من ركعات الصلاة ، ومنها سبحانه على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة ، كما من عليه بالقرآن الكريم بصفة عامة فقال تعالى : (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم)^(١) والسبع المثاني هي الفاتحة لأنها سبع آيات بينات وتنبي في كل ركعة .

ويبيّن لنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل سورة الفاتحة ، وهي السبع المثاني ، في الحديث الشريف الذي رواه الإمام الترمذى عن أبي هريرة رضى الله عنه ، ونص الحديث : (خرج رسول الله على أبي بن كعب فقال يا أبي وهو يصلى ، فالتفت أبي فلم يجبه ، وصلى أبي فخفف ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليك السلام ، ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتني ؟ فقال : يا رسول الله انى كنت في الصلاة ، قال فلم تجد فيما أوحى إلى أن : (استجيبوا لله ولرسول إذا دعاكما لما يحييكم) ؟ قال : بلى ، ولا أعود إن شاء الله ، قال : أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا الفرقان مثلها ؟ قال نعم يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تقرأ في الصلاة ؟ قال فقرأ أم القرآن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها ، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيتني) .

(١) آية ٨ من سورة الحجر

ولاتعجب أن يكون لسورة الفاتحة هذا الشأن الذى كشف عنه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنها بدأت بحمد الله والثناء عليه وتمجيده وتوحيده فى العبادة وإفراده فى الاستعانة ، وذكرتنا بيوم الدين ، يوم الجزاء ، وعلمنا أن نطلب من ربنا دوام الهدایة للصراط المستقيم ، وهو الصراط الذى سلكه إليه عباده المتقون وهم الذين أنعم عليهم من النبىين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ففى قوله (الحمد لله رب العالمين) إقرار منك أنه سبحانه وحده هو المحمود بكل نعمة ظهرت لك أو خفيت عليك ، وإقرار بربوبيته على خلقه فهو رب النعم كلها ورب الناس وهم المربيون ، وهو الخالق وهم المخلوقون ، وهو الرزاق وهم المرزوقون ، وهو المحى وهم الموجودون من عدم ، وهو المميت وهم الميتون من وجود ، وهو الباعث وهم المبعوثون ، وهكذا ، لهذا يقول السادة الصوفية : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، كما يقولون : لو أن سائلا سأله سبحانه : لم اختصت بالحمد وحدك لقال : لأنى رب العالمين أوجدتهم برحمة ، وأمدتهم بنعمتى ، فلا منعم غيرى ، فاستحققت الحمد وحدي ، منى كان الإيجاد ، وعلى توالى الإمداد ، فأنا مالك أمر العباد . وفي قوله (الرحمن الرحيم) إقرار برحمة لك فى الدنيا والآخرة ،

وبفضل رحمته تقلب فى نعمه الظاهرة والباطنة ، فهو سبحانه الرحمن بنعمة الإيجاد والرحيم بنعمة الإمداد .

وفي قوله () مالك يوم الدين) اقرار بانفراده بملكية يوم الدين ، لئلا يتوهم متوجه أن العباد يملكون شيئاً مما ملكهم الله في الدنيا فانخدعوا في دنياهم بملكية الموقوتة ، والتي لم تكن من عند أنفسهم ، بل كانت من عطائه وإحسانه ، ويوم الدين هو يوم الجزاء الذي ينظر فيه المرء ما قدمت يداه فيلقى المحسن ثوابه ويلقى المساء عقابه .

وفي قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) إقرار بأنه هو وحده المستحق العبادة ، فكل عبادة لغيره باطلة ، وكذلك إقرار بأنه هو وحده المعين الذي نستمد منه العون ، إذا لا حول ولا قوة لنا إلا به جل جلاله ، فوجب أن نستمد منه العون في إداء العبادات ، والطاعات والكف عن المعاصي والشهوات ، ويقول السادة الصوفية إياك نعبد شريعة ، وإياك نستعين حقيقة ، إياك نعبد عبادة ، وإياك نستعين عبودية ، إياك نعبد إسلاما ، وإياك نستعين إحسانا ، العمل الله قيام بإحكام الظواهر ، والعمل بالله قيام بإصلاح الضمائر ، كما يقولون إن القارئ يتكلم بلغه الجمع فيها وإن كان يصلى أو يقرأ وحده ليندمج في جماعة المؤمنين من الإنس والجن والملائكة فيتكلم بلسان الجميع .

وفي قوله (اهدنا الصراط المستقيم) إقرار بأنه وحده مالك الهدى

والضلال ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فلا يهتدى إليه أحد إلا بإذنه ، ولا يضل أحد إلا بمشيئته ؛ وإن لا يجوز أن يمن أحدنا على الله بإيمانه أو طاعاته ، وحقا ما يقول الله تعالى : (من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولية مرشد) ^(١) فأنت إنما تطلب الطريق إليه بمعونة منه وهى بصيرة التى تذكر بالآخرة ، وقد سئل الإمام الصوفى سهل التسترى ، أليس قد هدانا الله إلى الصراط المستقيم ، فلماذا نقول اهدانا الصراط المستقيم ، فقال بلى ولكننا نطلب الزيادة ألسنت تراه تعالى يقول (ولدينا مزيد) وقال بعض العلماء : إننا نطلب بذلك دوام الهدایة .

وفي قوله (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) إقرار بأن الإيمان بالله هو نعمة الله الكبرى لعباده المكرمين وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وحسن أولئك رفيقاً ، لأن الإيمان وما يتعلق به من فعل الطاعات وترك السيئات هو الصراط المستقيم ، وفي طلب اللحاق بالصالحين فرار من أعداء الله الذين فاتهم ركب الإسلام فغضب الله عليهم وضلوا سواء السبيل ، فهم مطرودون عن باب العبودية ، وقد حذر الله عصاة المسلمين الذين يغفلون عن الله بالحظوظ والشهوات ولم يتوبوا عن المعاصي والمخالفات فقال تعالى (واتقوا النار التي أعدت للكافرين * وأطیعوا الله والرسول لعلکم ترحمون) ^(٢) .

الإيمان درجات :

^(١) آية ٧ من سورة الكهف
^(٢) الآياتان ١٣١ ، ١٣٢ من سورة آل عمران .

هذا ويتفاوت الناس في درجات الخلق بتفاوت العمق في معرفه الله والفهم عنه تعالى ، ومن هنا قالوا عن السابق بالخيرات من المؤمنين أنه واصل ، وليس بينك وبين الله مسافة تطويها لتصل إليه ، إنما هو الوصول لحالة تشهد فيها أنه لا فاعل إلا الله وهي معرفة مذاق بوجдан وإحساس وبقدر عمقك في الفهم الوجداني يكون وصولك ، لذلك انقسم المؤمنون مع تساويمهم في العقيدة إلى عوام وخواص ، وخواص الخواص ، إذ يقول تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم متقصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله)^(١) .

فالعوام يهجرن القرآن أو يتذمرون سطحياً فلا يصل إلى أعماقهم ، أما الخواص فإنهم يتذمرون عن مذاق عميق ، فينظرون إلى باطن الدنيا حيث ينظر العوام إلى ظاهرها ، وبعدهم آجلها حيث يهم العوام عاجلها .

زينة الدنيا :

وقد امتحن الله للناس بزينة الحياة الدنيا بينما هم مخلوقون للأخرة ، فمنهم من تلهى بزينتها فتوقف عند أفق الدنيا الضيق ، ومنهم من تجاوزه إلى أفق الآخرة وهو الأفق الأعلى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا * وإنما لجاعلون ما عليها صعيدا جرزاً)^(١) والصعيد الجرز هو الأرض التي قطعت نباتاتها فصارت جرداء بعد أن كانت مخضرة وهو ما يشير إلى فناء الدنيا .

(١) آية ٣٢ من سورة فاطر .

(٢) الآياتان ٧، ٨ من سورة الكهف .

ومن هذا ندرك أننا حين نتقلب في زينة الحياة الدنيا يجب أن نحذر من الافتتان بها ، فإن مادتها إلى فناء وانقطاع ، والآخرة خير لنا وأبقى ، وذلك ما ينبهنا إليه قوله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى) ^(٢) ويفصل ذلك فيقول تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أونبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأحسار) ^(٣)

ويمثل سبحانه لسرعة فناء الدنيا فيقول (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتداراً) ^(٤)

ويبيّن ما يفتن الناس من زينة الدنيا فيقول سبحانه (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملأ) ^(١) ويندرج في الباقيات الصالحات الصلوات

^(١) الآياتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعلى .

^(٢) الآيات من ١٤ – ١٧ من سورة آل عمران .

^(٣) آية ٥ من سورة الكهف .

^(٤) آية ١٦ من سورة الكهف

الخمس وسائل الفرائض كما يدرج فيها سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وكذلك كل الكلام طيب من هذا القبيل يربطك بالله تعالى .

وفي حين حذرنا الله من زينه الدنيا الضارة أحل الله لنا زينها النافعة كما أحل الطيبات من الرزق فقال تعالى : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا وشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ^(٢) .

إذا تدبرنا ما تقدم تدبراً كافياً نكون قد اتخذنا لأنفسنا درعاً واقياً نستطيع به أن نتقلب في الدنيا ونحن آمنوا من شرورها ، ونكون صالحين لأن نتزود بدقة الفهم التي توصلنا إلى الله تعالى وتحلينا بمكارم الأخلاق التي قامت من أجلها الرسالة المحمدية الشاملة إذ يقول صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وقد لخص إمامنا الحسن البصري رضي الله عنه الدين في كلمتين حين سأله إمامنا على كرم الله وجهه : ما صلاح هذا الدين وما فساده فقال يا أمير المؤمنين صلاحه الورع وفساده الطمع ، فأعجب بحسن جوابه على الرغم من صغره إذ ذاك فقد كان في نحو العشرين من

^(١) الآيات من ٣١ - ٣٣ من سورة الأعراف .

عمره، فقال له معجباً : تكلم فمثلك يصلح أن يتكلم مع الناس ، بينما أخرج أمير المؤمنين من مسجد الكوفة غيره ممن لم يرض كلامهم .

فالورع لا يكون إلا من طلاب الآخرة ، والطمع لا يكون إلا من طلاب الدنيا ، وبين الفريقين بون شاسع ، وهذا الميزان الدقيق الذي بينه إمامنا البصري هو مخارق الأخلاق المنبع عن قوة الأخلاق أو ضعفها ، وبه نستطيع أن نفرق بين الأتقياء وغيرهم في العمل الواحد .

نية الجهاد :

وللتوسيع الأمر نفترض أن ثلاثة رجال أحدهم مؤمن يقاتل لتكون كلامه الله هي العليا ، وثانيهما كافر يقاتل انتصاراً للكفر وأهله الذين لاهم لهم إلا الدنيا ومتاعها ، وثالثهم مؤمن يخشى أن يموت في ساحة القتال ويرجو أن يموت على فراشه ، فانظر الصورة التي رسمها القرآن الكريم لهؤلاء الثلاثة ، يقول تعالى في سورة النساء في أولهم (فليقاتل في سبيل

الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيماً)^(١).

ويقول فى المقارنة بينه وبين الثاني : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً)^(٢) ويقول فى وصف حال الثالث وتشجيعه على القتال فى سبيل الله وحماية للمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان : ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاه وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا *

أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيده)^(٣) .

فالأول حمله ورעה على تفضيل الآخرة على الدنيا ، والثانى على عكسه وقف طمعه عند دنياه لأنها فى نظره كل شئ ، والثالث طمع فى الراحة وتفادى مشقات jihad فعلم ربه أن البعد عن ساحه القتال ليس معناه

تفادى الموت لأن الموت يأتيه عند انتهاء الأجل ولو كان داخل حصن حصين ، فلأنما

أعين الجبناء ، وما أروع تشجيع القرآن للمجاهدين فى سبيل الله بالنفس والمال فى قوله الكريم (إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله

^(١) آية ٧٦ من سورة النساء .

^(٢) آية ٧٧ و ٧٨ من سورة النساء .

فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ^(١) .

قدمت التربية الخلقية في القتال عن غيرها لأننا الآن أحوج ما نكون إليها ، فقد ديسرت حرمة أوطاننا ، واعتدى الغاصب على مقدساتنا ، وأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن نقول ربنا الله ، فوجب أن نحي في نفوسنا عزة الإسلام ، بكلام الله ، لأنه أقدس الكلام وأصدقه .
وحدة المسلمين :

وال المسلمين كلهم في المشارق والمغارب مخاطبون بالقرآن ، لا فرق بين عربهم وعجمهم ، والإسلام وطن واحد ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم لأنهم أمة واحدة إذ يقول تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأناربكم فاعبدون) ^(٢) .

ويرحم الله فيلسوف المسلمين السيد محمد إقبال إذ يقول في وحدة الأمة الإسلامية فيما ترجمه عنه إلى العربية صديق العلامة الشيخ الصاوي شعلان :

الصين لنا والهند لنا	والعرب لنا والكل لنا
أضحت الإسلام لنا دينا	وجميع الكون لنا وطننا

^(١) آية ١١١ من سورة التوبة

^(٢) آية ٩٢ من سورة الأنبياء .

أعدنا الروح له سكنا	توحيد الله لنا نور
والبيت الأول كعبتنا	بنيت في الأرض معابدها
حياة الروح ويحفظنا	هو أول بيت نحفظه
إن اسم محمد الهادي	روح الآمال لنهضتنا

وإني أصارحكم بأنه لو تخلق المسلمون بأخلاق الإسلام كما نطق بها القرآن الكريم وكما فعلتها السنة النبوية المطهرة ما صرنا أشتاتاً وقد تداعت علينا الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث له يقول فيه : يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها وعندما سئل : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال لا ، بل كثير ولكنكم غثاء كفثاء السيل .

ولو أن كل الدول الإسلامية نظرت في الموقف الحاضر بعين الإسلام وحده لما ترددت واحدة منها بل ولا فرد من أفرادها في المشاركة الفعلية في معركتنا مع الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر ، وما أحوجنا اليوم إلى موقف الجد الذي يحتاج للتماسك فنكون ببنياناً قوياً متراصاً بإحكام كما

وصف مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضها بعضاً .
أفلا يحركنا القرآن الكريم ببيانه المعجز حين يوبخ المخالفين عن القتال (يا أيها الذين آمنوا
مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيُسْتَبَدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضْرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١) .

أَوْ حِينَ يَأْمُرُنَا بِالْجَهَادِ وَيَبْيَّنُ لَنَا أَنَّهُ لَخَيْرُنَا (انفَرُوا حَفَافًا وَثَقَالًا وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ^(٢) .

وَإِنِّي فِي هَذَا الْمَقَامِ أَتَذَكَّرُ كَلْمَةً حَكِيمَةً كُنْتُ أَسْمَعُهَا كَثِيرًا مِنْ شِيخِي الْعَارِفِ بِاللَّهِ سَيِّدِ الْشَّيْخِ عَلَىٰ عَقْلِ طَيْبِ اللَّهِ ثَرَاهُ وَقَدْ انتَقَلَ إِلَى رَضْوَانَ اللَّهِ فِي ٢٤ مَارْسِ ١٩٤٨ ، فَقَدْ كَانَ كَلْمَ تَذَكَّرُنَا فِي حَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا يَقُولُ : نَحْنُ مُسْلِمُونَ بِالْجُغرَافِيَا ، فَسَأْلَتْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَمَّا يَقْصِدُ بِهَذِهِ الْكَلْمَةِ فَقَالَ إِنَّا لَسَنَا مُسْلِمِينَ بِالتَّرْبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّحِيَّةِ وَإِنَّمَا نَحْنُ مُعْتَدِّلُونَ مُسْلِمُينَ عَلَى الْخَرِيطَةِ فِي عِلْمِ الْجُغرَافِيَا وَلَسَنَا مُسْلِمُينَ بِالْفَعْلِ وَلَا كُنَا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى أَعْدَائِنَا كَمَا يَحِبُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَكَمَا كَانَ أَسْلَافُنَا الْبَوَاسِلُ رَحْمَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً .

الْقُرْآنُ وَالْعِلْمُ :

وَلِنَدْعُ سَاحَةَ الْقَتْالِ إِلَى سَاحَةِ الْعِلْمِ ، فَقَدْ عَنِيَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالْعِلْمِ أَيْمًا عَنِيَّةً ، وَكَفَاكَ دَلِيلًا عَلَى عَنِيَّتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى لِمَوْلَانَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَقُلْ رَبِّ زَنْدِيِّ عَلَمًا) ^(١) فَمَعَ

^(١) الآيَتَانِ ١٨ ، ١٩ مِنْ سُورَةِ التُّوْبَةِ .

^(٢) الآيَةُ ٤٠ مِنْ سُورَةِ التُّوْبَةِ .

أنه صلى الله عليه وسلم آتاه الله من العلم ما لم يؤته غيره فإنه تعالى علمه أن يطلب المزيد من العلم لأن علم الله لا يتناهى .

ولكن ما هو العلم النافع الذي ينشد المؤمن الاستزادة منه ، إنه العلم الذي يرده إلى الحق وينظر به إلى باطن الدنيا ولا يقف به عند ظاهرها فيكون قد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

ولتيسير فهم النقطة ، نفرض أن رجلاً كافراً قام ليله ونهاره طالباً للعلم فحصل منه الشيء الكثير الذي خص به ولكنه لم يؤمن بالله ولا برسله ولا باليوم الآخر ، فعله لا ينفعه إلا في دنياه وهي متعة قليل إذ لا تعود حياته أن تكون عشرات من السنين ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً خالداً .

ونفرض أن رجلاً آخر كان أقل منه تحصيلاً ، ولكن ما حصله من العلم زاده إيماناً بالله تعالى وعظيم قدرته ، فاستمسك بإيمانه بالله وبرسله وباليوم الآخر ، ولقي ربه فأثابه بإيمانه وأدخله جنه عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

^١ - آية ١١٤ من سورة طه .

فأى الرجلين أعلم ، أرجل وقف نظره عند علم فنى أثره بموته ثم لقى عذابه الخالد أو رجل لقى بعد موته أثر علمه فأسعده سعادة أبدية لا تفني ولا تبيد ؟ لا شك أن الثاني أعلم من الأول خير العلم ما دام نفعه .

يجلى لنا كتاب الله الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى : (ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون * أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينها إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون * أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبه الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسالهم بالبيانات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوائى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون * الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون * ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون * ولم يكن لهم من شركائهم شفاعة وكانوا بشركائهم كافرين * ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون * وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون)^(١)

وستطرد الآيات بعد ذلك فى شد أفكار الكافرين إلى الإيمان من طريق العلم الذى يرون به آيات الله ظاهرة للعيان فيقول سبحانه : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله

^(١) الآيات من ٤- ١٦ من سورة الروم

الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون * يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك آيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضلة إن في ذلك آيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطعماً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك آيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكם دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من في السموات والأرض كل له قانتون * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ^(١) . ويبين سبحانه بعد ذلك أن هو نفوسهم هو الذي أضلهم

بغير علم فيقول تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواههم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين ^(١) .

الإسلام دين الفطرة :

^(١) الآيات من ٢٧ - ١٧ من سورة الروم

^(٢) الآية ٢٩ من سورة الروم .

ويدعو سبحانه عباده المؤمنين إلى الاستمساك بدينه لأنه دين الفطرة التي فطر الناس عليها ، ولو ترك الكفار أنفسهم لسجيتها وفطرتها من غير أن يلبسهم هواها لاتبعوه ولكنهم اتبعوا أهواههم بغير علم كما عبرت الآية السابقة - فيقول سبحانه (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ^(٢) .

وإننا نحمد الله على أن كنا مؤمنين بفضل الله تعالى ورحمته ، ونعمته إلا يمان بالله تعالى نعمة لا تعدلها أية نعمة مهما عظمت . وعلم الإنسان بالله وتوحيده هو العلم الحق الذي وجه الله إليه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ^(٣) نسأل الله أن يلزمنا هذه الكلمة فهي كلمة التقوى ، وهي رأس المال العامل فمن حافظ عليها وأدى حقها رجا بها تجارة لن تبور .

ويعجب إمامنا على كرم الله وجهه من أهل الشك في الله وفي اليوم الآخر، فيقول في روعة من بيانه القوى :

عجبت لمن شك فساله وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن شك في الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك في النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء .

^(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

^(٣) الآية ١٩ من سورة محمد .

وأنتم ترون من كلماته العبرية هذه ، عجبه من أهل الشك مع وجود أدلة اليقين ، ولكنكم ترون منها أيضاً تعريضه بالمؤمنين الذين يعنون بعمارة الدنيا ولا يعنون بعمارة الآخرة .

الدنيا والدين

إن القرآن الكريم رسم لنا صورة أسلفنا الصالحين وأرانا فيها كيف جمعوا بين الدنيا والدين ، فلم تلههم دنياهم عن أخراهم ولا أخراهم عن دنياهم فقال تعالى مثلاً (فِي بَيْتِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمَهُ يَسْبُحُ لَهُ فِيهَا بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ رِجَالٌ لَا تَلَهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(١) .

وترون من الآيات الكريمة السابقة أنه كانت لهم تجارة وبيع وشراء ولكنهم لم يتلهوا بها عن إقامة الصلاة ولم يخلوا بإيتاء الزكاة فنجحوا في كسب عيش الدنيا من حلال وعملوا لما بعد الموت وحسبوا لـ يوم القيمة حسابه فكانهم قطعوا الدنيا إلى الآخرة وعاينوها ، والمسافات إلى الآخرة إنما تقطع بالقلوب والوجدان ، أما مسافات الدنيا فتقطع بالأقدام والأبدان .

فضل الاستشهاد :

وكذلك وصف القرآن بطولتهم في الجهاد مع ما تحملوه من مشقات المعارك السابقة وأرانا كيف يتنعم الشهيد بحياة الشهداء الخالدة فقال تعالى (وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّهُمْ يَرْزُقُونَ * فَرَحِينَ بِمَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيُسْتَبَشِّرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ مِنْ أَنَّهُ أَمْوَاتًا) الآيات ٣٦ - ٣٨ من سورة النور

^(١) الآيات ٣٦ - ٣٨ من سورة النور

وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا الله والرسول من بعد ما أصابهم
القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم
فأخشواهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم
يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ^(١).
وأنت ترى من هذه الصورة بطولة الأبطال مع يقين الزهاد والعباد ، الذين يرکنون إلى الله في
الشدائد ، وكفى بربك وكيلا .

حكم بالغة :

وانظر بعد ذلك كيف يربى القرآن المؤمنين في ساحة الحياة الدنيا ، واحرص على هذه الحكم
البالغة ، وطبقها عملياً ، لتكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنـه ، أولئك الذين
هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

يقول تعالى في تلك الحكم المتابعة ، في روعة من بيان القرآن الكريم المعجز : (لا تجعل
مع الله إليها آخر فتقعد مذموماً مخذولاً * وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما
يبلغن عنك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لها أَفَ وَلَا تنهـهما وقل لهما قولاً كريماً *
واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً * ربكم أعلم بما في

^(١) الآيات ١٦٩ - ١٧٤ من سورة آل عمران .

نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً * وآتى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وإنما تعرضن عنهم ابتفاع رحمة من ربكم ترجوها فقل لهم قوله ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً * إن ربكم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً * ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيراً * ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبلاً * ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً * وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً * ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً * ولا تمش في الأرض مرحباً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً * كل ذلك

كان سيئه عند ربكم مكروهاً ، ذلك مما أوحى إليك ربكم من الحكمه ولا تجعل مع الله إليها آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً) ^(١) .

وانظر كيف أوصاك تعالى مرة أخرى بالمخاطبين لك في المجتمع من الجيران وأبناء السبيل والخدم والقراء والضعفاء إذ يقول سبحانه (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً

^(١) الآيات من ٣٩ - ٢٣ من سورة الإسراء .

وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فحوراً^(٢) . وتعالى معى إلى ما يدعونا إليه كتاب الله الكريم من تأدية الأمانة وإقامة العدل فى الأحكام ، وطاعه ولاة الأمر ، والرجوع إلى أحكام الكتاب والسنن عند التنازع فى شئ إذ يقول سبحانه (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً * يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً^(٣) .

وتأمل كيف يحذرك من أن تعتمى على مال اليتيم ، أو تظلم زوجاتك إن كن أكثر من واحدة ، وكيف يرتكب إلى زوجة واحدة إن خفت ألا تعدل بينهن وكيف يسوى بين ظلمك لهن وبين أكل مال اليتيم بالباطل إذ يقول تعالى (وآتوا اليتامى إموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً * وإن خفتم ألا تقسموا فى

^(١) الآية ٣٦ من سورة النساء .
^(٢) الآياتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة النساء .

البيتاني فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ^(١).

وتدبر كيف يربينا القرآن الكريم على إقامة العدل بين الورثة بعد أن يبين نصيب كل منهم حتى لا تميز بهواك أحداً عن غيره (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرؤن أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليما حكما ^(٢) وليس لخلق أن يغير بهوى نفسه ما فرضه الله تعالى بعلمه وحكمته .

واعجب من طريقة القرآن الكريم في حمل المؤمنين على احتمال الشدائـد في سبيل الله مع انتظار الفرج بعد الشدة ، استرشاداً بمن سبقوهم ، إذ يقول تعالى : (ألم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الآباء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ^(٣) .

واعجب كذلك كيف يبين قصورنا في فهم الأمور على وجهها الصحيح الذي يعلمه الله وحده ولا نعلمه لا نطواه الغيب عنا بما فيه من حكم وأسرار ينفرد بعلمها سبحانه ، فيقول جل

^(١) الآية ٣ - ٢ من سورة النساء .

^(٢) الآية ١١ من سورة النساء .

^(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة .

جلاله : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)^(١) .

الرضا بالقضاء :

فلو أننا فهمنا ذلك حق الفهم لرضينا بما يجري به قضاء الله علينا ، ولكننا في واقعنا نشكو ونتبرم إذا وقع لنا ما نكره ، أو إذا لم ندرك ما نحب ، وقد تحملت أعباء علينا من ذلك أعباء من ذلك أعباء مرهقة ، وهذه الأعباء المرهقة لم ترد عنا القضاء ، وإنما جرت علينا كثيراً من الأمراض الجسدية والنفسية .

التوكل :

وأكثـر هذه الأعبـاء يـأتـينا من هـم الرـزـق ، وـقد كـفـلـه الله لـعـبـادـهـ، بل وـكـلـ دـاـبـةـ فـي الـأـرـضـ ، كـمـاـ سـبـقـ القـوـلـ ، وـقد وـرـدـ فـي السـنـةـ الشـرـيفـةـ أـنـ الرـزـقـ يـطـلـبـ إـلـيـنـسـانـ كـمـاـ يـطـلـبـهـ أـجـلـهـ ، فـمـاـ أـسـعـدـ المـتـوـكـلـينـ عـلـىـ اللهـ فـيـ أـرـزـاقـهـمـ وـأـرـزـاقـ أـبـنـائـهـمـ وـمـنـ وـرـاءـهـمـ .

التغريط في الطاعات :

ويعجب الإمام ابن عطاء الله السكندري ، طيب الله مثواه ، من

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

إقبالنا بكلياتنا وجزئياتنا على كسب أرزاق الدنيا ، وإدبارنا عن العناية لأمور الآخرة مع أن الله تعالى ضمن الأولى وكفلها ، وأخفى أمر الثانية ، ويرد تلك الظاهرة إلى انطمام البصائر ،
فيفقول رضي الله عنه :

(اجتهادك فيما ضمن لك وتقديرك فيما طلب منك دليل على انطمام البصيرة منك) .
ويتذر الإمام إبراهيم بن أدهم في عنابة الناس بتصحیح الكلام وإعرابه ، مع اتیان الأعمال
السيئة الخاطئة ، فيقول رضي الله عنه :

(أعرابنا في الكلام ولحنا في الأعمال ، فياليتنا لحنا في الكلام ، وأعربنا في الأعمال)

هوي النفس :

ويعجب شيخي العارف بالله سيدى الشيخ علي عقل من ان النفس تهوي الذي تهوي به ،
ولا تهوي الذي تعلو به ، فيقول في حكمه الملهمة لوقتها دون تحضير او إعمال فكر ، وذلك
من إلهام الله لأوليائه ، وقد لمسناه بأنفسنا السنوات الطوال ، وكان أحد الحاضرين في
مجلسنا قد سأله ان يأتي بقصيدة علي وزن البيت التالي وقافيته :
عجبنا لها تهوي الذي تهوي به

دون الذي تعلو به في ذاتها

فكان فيما قال رضي الله عنه فوراً :

كم عالم قد زل من نزعاتها
وتواصل الإقبال في شهواتها
شغلت بغير الله حين صلاتها
فأمالها عن هديها وهداتها
وتضج إن دعيت إلى حسناتها
أن العلا والفوز في نزواتها
فرعون للتألية من عثراتها
كم تكثر الدعوي على قرباتها
قد ترقى الأنوار في سباتها
دون الذي تعلو به في ذاتها

عجبًا لها تهوي الذي تهوي به
تنأى عن الاصلاح طول حياتها
تدعي لتأدية الصلاة وإنما
وقفت على الدينار وحسن بلاتها
قد رحبت بالسيئات مريضة
ضحك على جهالها فتوهموا
فنا مسلمة النبوة وانتهي
جهلت طريق الخير وادعت الهدي
فأنصح لنفسك في الأمور لعلها
ترضي تسفلها لكل نقيصة

تغزير المسلمين :

ويتحسر السيد / محمد إقبال ، رحمة الله ، إذ لم يجد في المسلمين صورة الخلق المحمدي
الموافق ل التربية القرآن ، فيقول فيما ترجمه عنه إلى العربية صديقي الشيخ الصاوي شعلان ،
زاده الله فضلا ، فيقول في تحسره :

ثم في أرض العرب
ولكم رأيت أبا لهب

طوفت في أرض الأعاجم
لم ألق فيها المصطفى

ويبيّن أمير الشعراء شوقي أهمية الأخلاق في حياة الأمم ، فيقول غفر الله له :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

عواداً إلى كتاب الله :

أيها الأعزاء : سقيتكم قطرات يسيرة من بحر القرآن الفرات الذي يتدفق معينه ، ولا ينضب أبداً وهو يجود بدره على الواردين والغواصين فهل آن لنا أن نرد هذا الشراب السائع للشاربين ، ونتحلي بما علمنا ونبلي به شوقنا إلى الله رب العالمين ، خاصة وأننا في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدي للناس وبينات من الهدى والفرقان ، أسأل الله لي ولكل العون والتوفيق ، وشكراً لكم على حسن استماعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته